في الأدب الانجليزي :

شكسبير والمعاصرون (*)

للأستاذ جريس القسوس

كان ظهور شكسبير في عالم الشعر وائتلاق نجمه في الأوساط الأدبية وهو الرجل غير المثقف من معجزات ذلك العصر بل كل العصور بالحقيقة ، فقد كان يتنازع الشهرة الأدبية وزعامة الشعر فريقان ، الأول مكون من رجل واحد هو كريستوفر مارلو[1] (Marlowe) الشاعر النابغة الفحل ، والثاني يتزعمه توماس ناش[2] (Nash) وأغلب أعضائه من الشخصيات العلمية الجامعية ، فناش وصحبه تخرجوا في جامعة كمبردج وغيرها من كبريات الجامعات في انجلترا .

وبالرغم من اشتداد التنافس والتناحر بين هذين الفريقين فقد كان من المسلم به أن مارلو هو الزعيم الأدبي والشاعر العبقري غير مدافع .

لكن الخطر كل الخطر داهم هذه الشخصيات العلمية الجامعية بظهور ممثل من عامة الناس لم يكن له شأن من قبل أو خطر ، أخذ في تأليف المسرحيات على شتى أنواعها ، والتجديد فيها وإعدادها لفرقة تشمبرلن التمثيلية بمظهر ملائم ذوق الناس الأدبي .

وقد سبق أن نشر شكسبير من قبل قصيدتين مذيلتين باسمه الصريح ، فلفت إليه الأنظار ، وجعل الأدباء يرمقونه بروح الدهشة والقلق والإشفاق . كان ذلك في ٣ سبتمبر ١٥٩٢ حين وافى الأجل الأديب المعروف روبرت جرين[4] (Robert Greene) تاركا مقالا مخطوطاً ، فتولى هنري تشتل (Henry Chettle) نشره في الثامن من ديسمبر من تلك السنة ، وفيه تعريض بهذا الشاعر الطارىء الحديث الشأن كما سترى . بيد أن تشتل عاد فنشر اعتذاراً من شكسبير وثناء عليه لدماثة خلقه وأمانته واستقامته ، وكذلك لسمو فنه الأدبي . وفي ختام مقاله يخاطب جرين ثلاثة من المؤلفين المسرحيين هم مارلو وتوماس لودج[1] وجورج پيل[2] ناصحاً إياهم أن ينصرفوا إلى غير مسائل التأليف . وفيه ترد العبارة المشهورة التي تشير إلى ظهور شكسبير « ذلك الغراب المحدث ، المتزين بريشنا ، الذي بمجرد قوله : (قلب النمر المكتسي بجلد الممثل) يعتقد أنه يجيد نظم الشعر المرسل (Blank Verse) كأحسن الشعراء . هذا الشخص الذي (يحذق حرفاً عديدة)[3] ، وهو عند ظنه (الشيكسين) (Shakescene) الأوحد في بلده . »

ومن الجلي الواضح أن جرين بذكره (لقلب النمر المكتسي جلد الممثل) إنما يشير إلى وصف شكسبير (لقلب النمر الملتف بجلد المرأة) الوارد في الجزء الثالث من مسرحية هنري السادس[4] التي كانت تعرف قبلاً (بمأساة ريتشارد أوف يورك) ثم في لفظة (شيك سين) (Shakescene) إشارة واضحة إلى اسم شكسبير ، ذلك لما بين الكلمتين من تشابه لفظي ظاهر . أو قد يكون المقصود بذلك ، ومعنى (شيك سين) : (يحرك المنظر ، أو يغير المشهد) ، غمز الشاعر من طرف خفي ونقده بأسلوب رقيق هادىء لرجوعه إلى النسخة الأولى من (هنري السادس) وهي من تأليف جرين وصحبه ، وإخراجه نسخة جديدة من تلك الأصلية القديمة .

ومن قول جرين هذا نخرج بثلاث حقائق راهنة : —

الأولى : إن شكسبير كان ممثلاً وكاتباً مسرحياً بميدالصيت ، فلا عجب أن ملأ نفوس الأدباء المعاصرين بالحسد والحقد والضغينة والمقت الشديد .

الثانية : ظهور مسرحية (هنري السادس) بأجزائها الثلاثة والتي ربما مسها شكسبير بقلمه كما يتبين من نشرها في المجموعة الأولى لمسرحياته (١٦٢٣) .

والثالثة ، إن شكسبير كان في بعض الأحيان بل أغلبها

(*) من كتاب عهد شكسبير لم يظهر بعد .

(١) يحمل شهادة (م . ع .) من جامعة كمبردج (١٥٦٤ — ١٥٩٣) .

(٢) (١٥٦٧ — ١٦٠١)

(٣) ١٥٦٠ — ١٥٩٢ .

(١) ١٥٥٨ — ١٦٢٥ ؟

(٢) ١٥٥٨ — ١٥٩٧ ؟

(٣) Johannes Factotum

(٤) الفصل الأول المشهد الرابع سطر (١٣٧)

يسطو على بعض القصص فى مسرحيات غيره من الأدباء وينهبها فى وضح النهار تهباً . ويتضح هذا من قول جرين (الغر المكتسى بجلد الممثل) ، ومن (الريش الذى استعاره منا الغراب الأسحم ليتزين به) .

أما المسرحيات التى أثارت دهشة جرين وحسده وجزعه معاً فلا يبعد أن تكون (هنرى السادس) التى راجعها الشاعر على كل حال وترك فيها أثراً ظاهراً . فقد لفتت إليها نظر جرين وأقرانه لما فيها من ازدحام الحوادث المتنوعة بشكل لم يعهد من قبل ؛ وكذلك (تيطس أندرونيكس) التى يعتقدون أن شكسبير لم ينفرد بتأليفها بل اشترك فى مراجعتها وتصحيحها ؛ وهى مأساة رائعة إذا قيست بمآسى مارلو وتوماس كد[1] Thomas Kyd التى كانت تعد من أعظم وأنفس ما شاهده ذلك العصر . وبتأثير ليلى[2] (Lyly) طرق شكسبير باباً جديداً فى فن الدراما هو الملهاة (Comedy) المفعم بالمحسنات اللفظية والكناية والاستعارة ، فقد كان يحبذ هذا اللون من أساليب الكتابة الناشئون فى الأدب ، وهو أبرز ما يتمثل فى جهد (الحب الضائع) (Love'sLabour's Lost)

هذه هى المسرحيات التى ألفها شكسبير قبل وفاة جرين ، فاسترعت انتباهه ، وحولت إليه أنظار الأدباء والناس جميعاً . وبعد وفاة جرين بسنة يأفل نجم مارلو فى سماء الأدب ، ثم يقضى كد (Kyd) نحبه سنة ١٥٥٩ ، ويمرض لودج (Lodge) عن الأدب وينصرف إلى ممارسة الطب ، ويخرج ليلى من القصر ، وينغمس بيل (Peele) فى الملذات وينقطع عن الإنتاج الأدبى ، ويتحول ناش إلى أدب الهجاء والقصة وهذا لا خطر منه . حتى إذا ما جاء عام ١٥٩٨ لم يشهد فى حلبة الأدب المسرحى على الأخص من ينافس شكسبير أو يجاريه .

ومن المحال أن تذكر لأديب ما فى ذلك العصر مأساة أو ملهاة كان لها ما لأدب شكسبير الدرامى من قيمة أو وزن . فلا عجب أن ترى أستاذاً جامعياً كبيراً كتوماس ميرز (Thomas Meres) يضع شكسبير فى مصاف المسرحيين المثاليين الذين نبغوا فى بابى الملهاة والمأساة . فقد وضع ميرز كتاباً اسمه (بلادس تاميا)[1] (استعرض فيه المجهود الأدبى منذ تشوسر[2]) حتى عصر الينابيث ، وتناول بالدرس والبحث نحو مئة وخمسة وعشرين أديباً من أدباء الإنجليز ، مقارناً بين كل واحد منهم وبين من يرى أنه يشبهه من أدباء العصر الاتباعى القديم ، أو أدباء الطليان فى عصر الرينسانس . وفى هذا الكتاب يشير إلى شكسبير مطرياً شاعريته الفذة ، كما تجلت له فى قصيدتى (فينس وأدونيس) (ولوكريس) ويرى أنه ليس دون أوفيد[3] الشاعر الرومانى العظيم مؤلف (المتامور فيسس)[4] أوبلونس[5] شاعر الملهاة عند الرومان ، وسنيكا[6] الفيلسوف الرومانى الذى برع فى تأليف المأساة . فيقول ميرز إن شكسبير لا يقل عن هؤلاء جميعهم فى مسرحياته (كوميديا الأخطاء ، وجهد الحب الضائع وسيدا فيرونا ، وحلم ليلة فى منتصف الصيف ، وتاجر البندقية ، ورتشارد الثانى والثالث ، وهنرى الرابع ، والملك جون ، وروميو وجوليت ، وتيطس أندرونيكس) .

ولهذا القول ولتعداد هذه المسرحيات قيمة مزدوجة ، الأولى وهى مجرد ذكرها وعزوها لشكسبير دون غيره ، وفى هذا رد على الذين يعزون نظمها إلى غيره ، وفيه دلالة على أنه ألفها قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، والثانية تألق نجم شكسبير فى سماء الأدب وازدهار شهرته الأدبية فى برهة وجيزة ازدهاراً لفت إليه الأبصار .

ولم يقف الأمر عند إشفاق الأدباء ، وقلقهم وجزعهم ، أو ثناء البعض الآخر عليه وإعجابهم به ؛ فقد وردت إشارات عدة فى الأدب المعاصر تشيد بذكر هذا الأديب (ذى اللسان

(١) (١٥٥٧ — ١٥٩٥ ؟) .
(٢) (١٥٥٤ — ١٦٠٦) .
(٣) (١٥٦٥ — ١٦٤٧) .

(١) Palladis Tamia
(٢) (١٣٤٠ — ١٤٠٠) .
(٣) ovib (٤٣ ق م — ١٨ م)
(٤) Metamorphoses مكونة من كلمتين من أصل يونانى معناها (تبدل الأشياء) .
(٥) Plautus (٢٥٤ — ١٨٤ ق م) .
(٦) Seneca (؟ — ٦٥ ق م) .